مذكرات بادليـــو
عن الحرب الحبشية

الأستاذ أحمد رمزي بك

وقع بين يدى أول أمس ملخص كتبته عام ١٩٣٧ عن مذكرات المريشال بيترو بادليو القائد الايطالى عن حرب الحبشية. وضع القائد مذكراته فى كتاب عقب دخوله مدينة أديس ابابا، وقدمه إلى الزعيم موسوليني، وكان هذا كافياً أن يثير رغبتى فى الاطلاع عليه بعد أن قضيت الشهور فى قراءة خطب موسوليني ومقالاته. ويعترف صاحب الكتاب بأن ما كتبه لا يعد تاريخاً رسمياً للحرب لأن هـذا التاريخ يتطلب مجهوداً طويلا وجمع معلومات متفرقة، ولا ينتظر الفراغ منه قبـل سنوات عديدة. ولكن الكتاب مقتصر على مجرد سرد لحوادث القتال فى اثيوبيا، كما كانت تبدو لبادليو القائد العام الايطالى، وهو ينظر للحوادث من قمة عالية، فهو يعرضها بطريقة اجمالية عامة كما يراها بنظرته الشخصية كانسان، فيشرح الحرب وأدوارها كما كان يراها فى مركز قيادته، وهو لا يتأخر أن يكشف عما كان يجول بخاطره: من إقدام وتردد، ويعرض علينا بصراحة طريقة تفكيره، وتطور هذا التفكير ثم مسايرته للحوادث. وقال إن الفكرة الأولى التى أوجدها وألزم نفسه بها هى إحراز النصر على أى وجه يكون، فكانت هذه الفكرة راسخة لديه رسوخ العقيدة التى تسلطت على لبه، وكان يستمد منها دوافع العمل والتصميم والأخذ بالقرارات الحاسمة السريعة، فلم تفارقه هذه العقيدة فى أشد الأوقات والأزمات، وانتهى بها إلى قيادة القوات التى وضعت تحت إمرته بالنصر والظفر إلى النهاية.

ويقول بادليو فى كتابه: «لعل أعظم ما واجه المسئولين عن قيادة الحرب الحبشية، هو ضرورة الحصول على نصر سريع حاسم بأقصى سرعة ممكنة، لأن عامل الوقت كان يعمل ضد ايطاليا» وقد كتب موسوليني فى مقدمة الكتاب ما يأتى: «ان غاية كل حرب هو أحراز النصر؛ أما الحرب الحبشية فكانت تستلزم فوق هذه النتيجة الحتمية أن يكون أحراز النصر كاملا فى غير ابطاء أى بسرعة فائقة».

والمتتبع لحرب فلسطين يتفق معى فى أن إحراز النصر فيها، كان يستلزم السرعة الفائقة والوصول إلى احتلال أكبر مساحة فى أقصر وقت ممكن، وهذا ما لم يلتفت إلى تحقيقه المسئولون عن حملة فلسطين.

ويقول بادوليو إنه تولى القيادة فى ١٥/١١/١٩٣٥ ودخل عاصمة الحبشة فى ٥/٥/١٩٣٦ فكأنه لم يأخذ فى العمليات التى قام بها سوى ٤ أشهر وأيام معدودات.

وللوصول إلى نتيجة مثل هـذه حشدت ايطاليا أكبر قوة عسكرية فى القارة الافريقية إذ جمعت ٣٠٠ ألف مقاتل ايطالى و ١٠٠ ألف عامل وقوة من الطائرات عمادها ٤٠٠ طائرة كما جمعت أكثر من ١٠٠ ألف من الجنود الافريقية اللونة (السمر والسود) — وكانت العمليات الحربية التى قامت بها تتمثل فى اتساعها وتفرعها أكبر حرب للاستعمار رأتها القارة السوداء حتى ذلك التاريخ. فاذا أضفنا وسائل الفن الحديث للقتال وسوق الجيوش وتعبئتها ونقل المؤن وانشاء الطرق جاءت هـذه الحرب بمثابة فتح جديد للحروب الافريقية.

ولهذا فأن الدراسات التى قامت على معارك حرب الحبشة كانت ذات أهمية خاصة. ولا أتهم بالمبالغة إذا قلت أن قواد الحلفاء الذين خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية استفادوا كثيرا من دروسها. ثم أقول أنه من دروس الحرب العالمية الثانية ومعاركها فى القارة الافريقية ما يدعو أيضا إلى الاستفادة من ناحية الاستعداد للحرب ووضع خططها فى المستقبل: لأن عمل كل فئة استفاد منه من جاء بعدها وهلم جرا ...

ولقد تبين لى من الاطلاع على ما كتبه بادوليو أن ايطاليا كانت تضع الخطط منـذ سنوات طويلة للحصول على النصر فى الحبشة فى حالة اشتباكها بالحرب معها — ولقد أخـذت أهبتها منذ سنة ١٩٢٥ فبدأت تعيد النظر فى أنظمة الجيش وتهيئة قواتها العسكرية بالاستعمرات.

واختارت لاتمام هذا العمل الانشائى نخبة من ضباط الجيش الذين يعملون بهدوء وصمت : ومداومة وعناد .

وكان أول ما اهتمت به فى نظامها الانشائى العسكرى تكليف وزارة الأشغال العامة بانشاء شبكات محكمة لطرق المواصلات فى اريتريا والصومال توصل إلى الحدود الحبشية . (١)

وكان الاتصال دائما بين رئيس هيئة أركان حرب الجيش الايطالى ووزارة الخارجية مباشرة — والمتولى بادوليو هذه الرئاسة كان يخول إليه حق الاطلاع باستمرار على دقائق العلاقات السياسية وتطورها بل يؤخذ رأيه فى أهم ما يدور البحث فيه بين بلاده وامبراطورية النجاشى .

وكان من واجبه أن يرقب بانتباه وعناية تامة كل حركة يقوم بها النجاشى لتنظيم بلاده سياسيا أو محاولته تركيز السلطة فى يده ، وكان من أهم ما تخشاه ايطاليا هو أن تنجح الحبشة فى مشروعها الذى يرمى لايجاد جيش منظم على الأساليب الأوروبية ومزود بالأسلحة الحديثة ، فينتهى النجاشى أن يوفق فى الاستفادة من مزايا وصفات قومه الحربية وطبيعة أرض بلاده .

وكانت الحبشة خالية تماما من تلك الطبقة الممتازة من الضباط الوطنيين الذين يفكرون بتفكير الأوروبيين أو يعرفون طرق الحرب الحديثة وخاصياتها وما تتطلبه من فن ومقدرة ، وما تستازمه من نظرة نافذة واعية ، حتى يتمكن أصحاب هذه المهنة من وضع الخطط الحربية وتنفيذها .

ويذكرنى هذا بما قرأته عن كلام مصطفى كمال الزعيم التركى الذى أسند أسباب نهضة تركيا الحديثة إلى تلك النخبة من الضباط العظام الذين لولا نظرتهم الايجابية اضاعت بلادهم كما ضاع من قبل استقلال بخارى ومراكش وتونس ومصر : فهذه النخبة من الضباط الذين يجمعون بين العلم والفن العسكرى الأوروبى ، والجرأة المستمدة من الشعور القومى هى التى كان بوسعها انقاذ البلاد ، وهى التى اطمأنت ايطاليا من عدم وجودها ولم يكن هناك من يحل مكانها لأن ادراك الساسة الأمور محدود ، ونظرتهم قاصرة وكل هذا يبعدهم عن فهم الحقائق وضرورات العصر الحالى فكانوا يحضرون انفسهم للهزيمة والابادة .

ويقول بادوليو إن النجاشى أخذ فى السنوات الأخيرة يلجأ إلى الاستعانة ببعض الاخصائيين من الأجانب الذين لبوا دعوته وقاموا برسم له الخطط ، فاشتد قلق السلطات الايطالية خوفا من أن تستعد الحبشة عسكريا تحت اشراف هؤلاء الضباط الأوروبيين — فتنشىء لها جيشا وطنيا قد يقف عقبة فى سبيل اطماع ايطاليا أو يزيد مشاكل الفتح وتكاليف الحرب القادمة . ولذلك رأت الحكومة الايطالية أن الساعة قد أزفت لمراجعة المسألة الحبشية بالفصل فيها قبل أن يستفحل أمرها : وأن تضرب الحبشة ضربات حاسمة وبسرعة لكى تضمن تصفية هذه المملكة تصفية نهائية وبطريقة لا تمكنها من القيام مرة أخرى .

ويستمر بادوليو يحدثنا عن الحبشة فلا يستهين بها وانما يقرر أن المعلومات كانت تصل إلى ايطاليا باستمرار من أنحاء البلاد المختلفة عن كل صغيرة وكبيرة فيها وقد أدى جمع هذه المعلومات وتصفيتها بيد الخبراء إلى أن اثيوبيا بوسعها أن تجند قوة محاربة تتراوح بين ٤٠٠ و ٢٥٠ ألف مقاتل وأن تحشدها فى الجبهة الشمالية وأن تسوق قوة أخرى تتراوح بين ٨٠ و ١٠٠ ألف مقاتل لجبهة الصومال الايطالى وفى طاقة البلاد تكوين احتياطى من القوات المقاتلة لشد أزر الجيشين : أما من ناحية التسليح فقد أتت الأخبار الموثوق بها تقرر أن القوات مزودة بأسلحة حديثة خفيفة ولكنها من عيارات وطرز مختلفة مما يسهل وقوع الاخطاء فى استعمال الذخيرة : (يلاحظ أن الدول الغربية كثيرا ما تلجأ إلى هذه الوسيلة بالذات لعرقلة القوة المقاتلة لدى الأمم الشرقية وهى : ناحية تعدد أصناف الذخيرة وتعدد أنواع الأسلحة المختلفة العيارات لما يلازم هذا التنوع من اخطاء فى توزيع الذخائر على الوحدات المقاتلة)

وجاءت إلى رئاسة أركان حرب الجيش الايطالى معلومات دقيقة عن كافة أنواع الأسلحة التى شحنت فى السنوات السابقة للحرب من مدافع وبندقيات رشاشة وأسلحة للمشاة ، وعدد الطائرات والسيارات المدرعة وما جاء للمدفعية من مدافع ميدان ومدافع مضادة للطائرات — مما أمكن أن يعطى فكرة عن محاولة انشاء قوة من المشاة على الأقل منظمة على الأسس الأوروبية .

ولكن المطلعين على الشئون العسكرية كانوا على ثقة تامة

(١) سبق لى تنبيه السلطات المصرية بتقرير مفصل عن ذلك

من عجز الحبشة عجزا تاما وعدم قدرتها على توجيه أية حملة كاملة الأهبة والاستعداد لا كتساح إحدى المستعمرتين الايطاليتين. وذكر بادوليو تبريراً لهذا العجز سببين أساسيين - الأول مادى راجع إلى طبيعة الأراضى وخلوها من طرق المواصلات التى تسهل الحشد وتمكن من سوق الجيوش وحشدها فى أماكن التجمع اللازمة لها

الثانى أنه إذا وجدت هذه المواصلات فالبلاد مفككة داخليا وظروفها السياسية والاجتماعية لا تمكنها ، من أخذ هذا العبء عليها. وأخيراً فهى خالية من كل المسائل المادية والأدبية التى تجعل تجهيز هذه الحملة موضع تفكير .

إذن فهو مطمئن إلى أنه صاحب اليد الأولى فى توجيه الحرب الوجهة التى يريدها وهى بطبيعة الحال ستكون هجومية من جانبه ، دفاعية من الجانب الآخر .

وان تكون حربا ثابتة وراء الأكمات والحصون والخنادق بل ستكون حرب حركة فى أعلى مظاهرها فهى ، فى حاجة إلى إحكام التدبير والخطط وستحتم احتلال أماكن بعيدة والتوسع فى الزحف بشكل غير معهود فى السابق بل تفرض اشغال العدو وأحكام المباغتة والاستعداد لأخذ القرارات السريعة الحاسمة وما يستلزم ذلك من الجرأة والثقة فى النفس حتى يضمن القائد سرعة التقدم وضمان الوصول إلى الهدف المعين فى الوقت الذى تحـــدده القيادة العامة .

لهذا كله يشير بادوليو فى القسم الأخير من كتابه إلى أن أول أمر تستلزمه حرب الحركة والا كتساح هو ايجاد قواد أكفاء ذوى شجاعة للاضطلاع بالمسئوليات الكبرى وليس من السهل العثور على هذه الفئة الممتازة فى أى جيش أوروبى إذا لم يدرب أفرادها من البدأ لهذا الغرض وتعطى لهم حرية واسعة للعمل وقت التدريب وأن يكون الاختيار منصباً أولا على الكفاءة والاستعداد الشخصى فليس كل ضابط يصلح لهذا الاختيار وليس كل قائد لديه الاستعداد الشخصى لمثل هذه الأعمال :

وقد نجح فى إيجاد قوة من الضباط الأكفاء من الناحية الفنية أى فى القيادة ، وفى وضع الخطط للتعبئة وسوق الجيوش ، وقد أشرف بنفسه على امتحان معلوماتهم ، وعرف عن كثب مدى ادراكهم للأمور ، ولذلك مهد لهم طرق الاشتراك فى الحرب الحبشية مشيرا إلى أنها الفرصة الوحيدة التى سنحت لهم لأظهار صفاتهم العسكرية الممتازة ومقدار ما وصلوا إليه من معلومات وما أتقنوه من فن عسكرى .

وأشار إلى ما لازم ايطاليا من توفيق فى تكوين جيشها (بكادر) أى مجموعة هائلة من ضباط الصف الذين لهم دراية خاصة ومقدرة على فهم التنظيم والعمل بوحيه وروحه وهى صفات تستلزم المران الطويل ويخلقها ويبرزها التدريب الفنى والتربية العسكرية المبنية على أداء الواجب: وقال ان هذا الكادر هو عدة الجيوش المحاربة.

وهكذا استمر المريشال الايطالى يحدثنا بأسلوبه الشيق ويقول إن الحرب الحبشية كانت تجربة ولكن قاسية دخلتها دولته وخرجت منها منتصرة بفضل العناية التى بذلت فى رفع مستوى الجنود والضباط على السواء. وقال أنها كانت فى وجهة نظره مواجهة المجهول والتغلب على أشياء غير منتظرة ، ولا مفروض وقوعها. وكان كقائد واقعاً تحت تأثير الزمن كعامل فعال فكان يطلب إليه اتمام عمل معين بأقصى ما يتطلب من السرعة وفى أقصر وقت؛ وكان يضع خططه ويجهز نفسه لسوق وحدات بقصد احتلال مراكز معينة ، فتصدر إليه أوامر من روما بتغيير الخطة والسير بغير أمهال لناحية أخرى، فكان يلبى هذا الأمر ولكنه يسير بوحى نفسه فلا يغير خطته الأولى متحملا المسئولية إلى النهاية.

قال إن أكبر عوامل النجاح هو التنظيم الذى مكنه من عمل المستحيل والذى بدأ بتفريغ ونقل ملايين الأطنان من الذخائر والمؤن فى بلاد لم تستعد لتلقى هذه الكميات الهائلة من العتاد ، ثم سار فى التغلب على الطبيعة بانشاء الموانى والأرصفة والطرق والكبارى وتحريك نصف مليون رجل ودفع ملايين من الدواب وآلاف السيارات . كانت الحرب آلة محكمة الوضع ، ولذلك تغلبت على العقبات وأحضعت الطبيعة. وتلمح من ثنايا كلماته: إن أرادته تغلبت فى النهاية على أوامر روما وما تحمله من متناقضات وجهل بشئون الميدان ، وقرر أن مثل هذه المصاعب أولى مظاهر الشاكل والمتاعب التى تواجه القائد فى الحروب ، والتغلب عليها أول مظهر لصفات القيادة الحاسمة الجريئة التى إذا وضعت الأقدار بين يديها مقدرات المعارك والحروب فعليها أن تستفيد